متى ٣، ١٣-١٧

٢ عيد الظهور الإلهي

صوت الربّ على المياه

اليوم ينـــزل المسيح إلى المياه، ليقدِّس المياه، وليس لينالَ التطهير، وهو الخالي من كلّ خطيئـــة. الصلوات والطقوس والقراءات كلّها تشير إلى تقديس هذا العنصر الجبار من الطبيعة، أي المياه.

لليهوديّ، في ذلك الزمن، كانت البحار والأنهار الكبيرة عالماً للمجهول والموت والضياع، كانت عالماً لا يستطيع الإنسانُ السيطرةَ عليه. لقد كان القسمَ الأكثرَ رهبةً من كلّ أقسام الطبيعـــة، وكـــان أكثرها مدعاة للخوف. ففي المياه يموت الكثير من الناس ولكن نجدهم ويضيعون. وفي البحر تنين كبير يلعب فيه، والله فقط وضع للمياه حداً لكي لا تتعداه، وهنا رحمته. في المياه تعشعش الشياطين والتنانين.

لم يستطع الإنسان السيطرة على هذا العالم المهيب إلا بتدخل النعمة الإلهيّة. لقد تمّ عبور الأردن والنِّيل ولكن بتدخل الله. النعمة الإلهيّة إذن ضرورية من أجل غلبتنا وسيطرتنا على عناصر الطبيعة.

تمرّ القراءات على الحوادث والإشارات التي تبرهن سيطرة الربّ على هذه القوة العمياء والجبّارة، المياه. القراءات توضح غلبة النعمة على ظلمة وعتيان المياه، وبالتالي عن وضعها في خدمة المخطط الإلهيّ من أجل تقديس حياة الإنسان بدل أن تكون ضد وجوده وحياته.

وتذكرنا القراءات أولاً "بخلق الله للمياه" وذلك لوضعها في خدمة الإنسان. فهذا القســـم مـــن الخليقة، ضمن المخطط الإلهيّ، يندرج تحت تقديس الطبيعة من أجل خدمة خلاص الإنسان.

في قصة "عبور البحر الأحمر"، صارت المياه خادمة للشعب المؤمن وممانعة للمضطهدين من جيش فرعون، بعد أن كانت حاجزاً منيعاً أمام خلاصهم. وتمَّ ذلك بتدخل النعمة الإلهيّة. يكـــرِّر الحـــدث "أليشع بأمر من إيليا"، ويضرب المياه في الأردن ويشقّها. المياه حفظت "موسى"، ولهذا أُطلق عليه هذا الإسم، الطفل الذي كان من المكتوب له أن تقتله القابلات عند ولادته. بأمر أليشع "طهّـــرت الميـــاهُ نعمانَ الأبرص". ببركة موسى صارت "المياه المرّة في مارة حلوة" للشرب. بالمياه و"الجزّة" دلّ الله على إرادته لجدعون. المياه دلّت على حقيقة "إله إيليا"، حين نزلت النار على المحرقات والتهمت الذبيحـــة

والماء الغزير حولها، فالماء الذي يمنع النار يخضع لها ليساهم في الدلالة على العظمة الإلهيّة. المياه في "الغمام" ظلّلت الشعب وقادته في البرية. كلّ هذه الصور الرائعة من العهد القديم تريد أن تدلّ على تقديس المياه ووضعها في خدمة الإرادة الإلهيّة التي هي تقديس الإنسان، بعد أن كانت عنصراً من الكون يرمز للظلمة والموت، وهذا التحويل يتمّ حين تحلّ البركة الإلهيّة. أشعياء النبي غنيّ بوعوده، بأن الله يقودنا إلى مياه الراحة وستفرح الأرض العطشى.

كلّ هذه الأحداث التي تمّت وسمعناها في القراءات تريد أن تشير إلى الرجاء البشريّ في السيطرة على الشرور الطبيعيّة والاحتماء من قواها الفتاكة، لا بل وضعها في خدمة حياته ومعرفته لله، ولكن بعد معاضدة النعمة الإلهيّة.

الصلوات التي نتمّمها الآن هي ابتهالات لاستدرار النعمة الإلهيّة على المياه بحيث يصير هذا الماء علّة للتطهير من أمراض النفس والجسد.

الأردن رجع إلى الوراء حين دخله تابوت العهد وتوقّفت مياهه عن الجري، طالما التابوت في وسطه، حتّى عبر كلّ الشعب وخلص. واليوم ترى الكنيسة في نزول المسيح إلى المياه، العهد الحقيقيّ، والحدث ذاته. ينزل المسيح إلى الأردن وطبيعة المياه تخضع وتتقدّس. هذا التيّار الجارف المخيف صار طائعاً أمام تابوت العهد، واليوم الأردن يتقدّس إذ يحوي الضابط الخليقة بأسرها في قبضته.

تراجع القوى الطبيعيّة الثائرة والفتاكة وخضوعها تعبير عن سيطرة الإنسان على كلّ الشرور الطبيعيّة التي تعذّب حياته وقد فقد السيطرة عليها. منها المرض والزلازل والفيضانات... وسواها.

كلّ شيء يتقدّس لأن الربّ ظهر، فيصير كلّ شيء واسطة للحياة وليس أداةً للموت. المياه، وهي أهم عناصر الطبيعة وأكثرها رهبة وقوّة، تصير الآن بحلول النعمة والبركة الإلهيّة إكسيراً لغفران الخطايا وينبوعاً للشفاء والحياة، لأن الربّ باركها بعد أن كانت أمام الإنسان دون تدخّل الله للظلمة والخوف.

الخليقة كلّها تصير بحلول النعمة علّة لحياة الإنسان وليست بعدُ سيدةً على حياته. نرشّ المياه على كلّ شيء لأننا نريد أن نقدّس كلّ شيء أي نريده واسطة للحياة.

آمين